التَّضمينُ النَّحويُّ: قراءةٌ نقديَّةٌ في المنهج

د/ عبد الله عبد القادر الطَّويل
جامعة أَديامان– كليَّة العلوم الإسلاميَّة(تركيا)

يتناول هذا البحث قضية بارزة في الدَّرس النَّحوي، نالت عنايةً متميِّزةً من علماء اللُّغة والبيان والتفسير قديمًا وحديثًا، إذ لا يكاد يخلو كتاب من كتبهم من ذِكر هذه الظاهرة وبيان طرافتها وجمالها، واختلاف العلماء فيها، فكلٌّ أخذ منها بطرفٍ وعالجه بأسلوبه.

والتضمين من أنزه الفصول في العربية، فإذا تأملته عرفتَ منه وبه ما لحروف المعاني من أسرار يكشفها لك، ويظهر فيها مزيَّة ... ترى الحرف مع فعل أو مشتق لم يألفه، فيوحشك الحرف ويبقى الفعل قلِقًا ، فإذا حملته على التَّضمين تمكَّن الفعل وآنسك الحرف، فلولا فعازَّة الخاطر في هذه الحروف، ومساورة الفكر واكتداده لكنت منها على حَرَد وعنها بمعزل وبأمر سواها في شغل.

ومعلوم أنَّ الدلالة وظيفتها البحث عن المعنى، وهي تُعين على فهم الحقيقة اللغوية وترشد إلى تفسيرها بالغوص وراء مُراد المشرِّع ، والاستلهام بروح النَّص لا بحرفيته لفهم محتواه الاجتماعي أو التاريخي، أي القرائن التي تُلقي عليه ظلال معناه. وقد وضع اللغويون تحت أيدي الدارسين تراثًا في هذا الجانب يستحق كلَّ ثناءٍ وتقديرٍ لما بذلوه من جهود كبيرة لفهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنَّ ظاهرة التَّضمين قد تباينت الآراء فيها وتعددت المذاهب في تفسيرها، ومن ثمَّ اختلفت مناهج دراستها وتعددت، بَيْدَ أنِّي لم أقف في حدود ما اطلعت عليه من مظان على دراسةٍ وافيةٍ لها في المنهج على وجه الخصوص ، إذ كانت الدراسات منصبَّة على تناول (فرضية) الخلاف بين البصريين والكوفيين .

فقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن نتناول فيه: حدَّ التَّضمين لغةً واصطلاحًا، وفائدته، وأنواعه، وحقيقة اختلاف النَّحويين في مسألة تناوب حروف الجر، وتفسيرات النَّحويين لأمثلة التَّضمين ، مناقشًا تارةً ومرجحًا أخرى مع البحث عن حقيقة الآراء المنسوبة إلى النَّحويين القدماء، واستقرائها من أصولها فهي منبع الحقيقة لمن يبتغيها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حدُّ التَّضمين لغة واصطلاحاً:

أ . التَّضمين لغةً: قال ابن فارس: " ضَمِنْتُ الشَّيءَ ضمانًا : تَكَفَّلتُ به، وكل شيء جعلته في وعاءِ شيءٍ فقد ضَمَّنْتَهُ إيَّاه " [1] .

وقيل: " ضَمِنَ المال عنه : كفَلَ له به .. ومن المجاز : ضَمِنَ الوعاءُ الشَّيء وتضمَّنه، وضَمَّنتُه إيَّاه ، وهو في ضِمْنِه، ويقال : ضمَّن القبرُ الميِّتَ، وضمَّنَ كتابَه وكلامَه معنىً حسنًا، وهذا في ضمن كتابه .." [2] .

وقيل أيضًا: " ضمَّن الشيءُ الشيءَ :أودعَهُ إيَّاهُ،كما تودعُ الوعاء المتاعَ والميِّت القبرَ" [3].

ويظهر من هذه المفهومات اللغوية لمادة (ضمن) في المعجمات أنها لا تخرج عن معنى (الإيداع والكفالة) . والكفالة: أن ينوب الشَّخص مناب آخر فيقوم بعمله . وهو . ههنا . لم يبتعد عن المفهوم الاصطلاحي الذي وضعه العلماء له .

ب . التَّضمين اصطلاحًا : " هو إعطاء الشيء معنى الشيء ، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف " [4] .

ويقول ابن هشام: " قد يُشرِبون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه ، ويسمى ذلك تضمينًا" [5]، وتابعه في هذا الأشموني[6]، والصَّبان [7]، ومحمد محيي الدين عبد الحميد[8].

والملاحظ في هذه الحدود إطلاق مصطلح التَّضمين ليشمل اللفظ كله، وهو مذهبٌ انفرد به هؤلاء النَّحويون كما سيتبين لاحقًا.

شمولية التَّضمين لأقسام الكلم وعدمها: ذكرت فيما سبق الحدود الاصطلاحية للتضمين عند بعض العلماء وكان الملمح البارز في حدودهم تلك عدم اقتصار التضمين على لفظة دون أخرى وإنما اشتمل مفهومهم له اللفظ مطلقًا ، وحدَّ الزركشي معنى اللفظ بالاسم والفعل والحرف . وهذا الرأي ارتضاه الدكتور إبراهيم السامرائي (رحمه الله) إذ قال: " التضمين : أن تستعمل مادة فعلاً كان أو اسمًا أو أداة محل غيره مع قرينة : قولية ، أو حالية تشير إلى المعنى الذي استعمل " [9].

ويلاحظ أنَّه اشترط القرينة التي تفصح عن المعنى[10] وهو أمر ذكره القدماء من قبل، ويبدو أنَّه أمر صائب إذ يحدد الظاهرة ويقيدها بشروط تمنع الاستخدام المطلق لها والذي سيؤدي بلا شك إلى الخطأ في الكلام .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويمكن أن نعد ما تقدم من أقوال النَّحويين مذهبًا خاصًّا انفرد بالقول بشمولية التَّضمين وعدم اقتصاره على لفظٍ دون آخر، وثمَّة من ينحو منحى آخر في النَّظر إلى هذا الأمر وسأعرض لهذه الاتجاهات على وفق ما يأتي :

أولاً : عدَّ بعض النَّحويين والباحثين التَّضمين مقتصرًا على الأفعال ومن هؤلاء الزمخشري فيما نقله عنه السيوطي، قال : " من شأنهم أنَّهم يضمنون الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه ويستعملونه استعماله مع إرادة معنى التَّضمين " [11].

وممَّن قال بهذا أيضًا السيد الجرجاني في حاشيته على الكشاف، إذ قال: " التَّضمين أن تقصد بلفظ معناه الحقيقي ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه ويدلُّ عليه بذكر شيء من متعلقاته ، كقوله: أحمد إليك فلانًا، لاحظت فيه مع الحمد معنى الإنهاء، ودلَّلت عليه بذكر صلته، أعني (إلى) ، أي: أنهي حمده إليك " [12]. ونقل الشهاب الخفاجي عن السيد السَّند قصره التَّضمين أيضًا على الأفعال [13].

وقد ذهب إلى هذا بعض المعاصرين وفي مقدمتهم مجمع اللغة العربية في القاهرة، فقد قصروا التَّضمين في قرارهم على الفعل وما يؤدي معناه، فذكروا أنَّ:" التَّضمين: أن يؤدي فعل أو ما في معناه إلى التعبير مؤدى فعل آخر أو ما في معناه، فيعطي حكمه في التَّعديه واللزوم "[14].

وقد ارتضى الباحث (عبد الله صالح بابعير) هذا المذهب وذكر حدًّا للتَّضمين أحسبه أنضج من الحدود الأخرى ، قال: " التَّضمين: أن ينوب فعل وما في معناه عن فعل آخر أو ما في معناه ، فيحمل الغائب معنى المنوب عنه ، بفعل النيابة لا بأصل الوضع تاركًا المعنى الذي كان عليه في أصل وضعه قبل النيابة ، ويقتضي حمل المعنى أن يحمل النائب العمل الإعرابي للمنوب عنه أيضًا، أي : مقتضيات تركيبه من حيث التعدية واللزوم ونوع الحرف المتعلق به"[15].

وحدد ملامح مفهومه الذي وضعه : بإخراج الحروف والأسماء المبنية من دائرة التضمين واقتصاره على الأفعال ، وعدَّ التَّضمين صورة من صور النيابة ، وعدَّ الفعل المذكور في اللفظ لا يؤدي بلفظه إلى معنى واحد هو معنى الفعل المِنوب عنه بعد أن تخلى هو عن معناه الذي كان عليه في الأصل ، وهذا الأمر ذكره من قبل الكفوي أيضًا قال : " إذا ضُمنت كلمة معنى كلمة أخرى ، ووصلت بصلتها لم يبق معناها الأول مرادًا " [16].

ويبدو لي أن هذا الأمر لا يمكن إطلاقه هكذا ؛ لأنَّ الفعل إن تخلَّى عن دلالته المعجمية ليحمل معنى الفعل المسقط سينفي دلالته هو، والذي تميَّز به عن غيره، ومن ثم اقتضى الإتيان به . ههنا . ليفيد دلالة أقوى على معنى الكلمتين .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفائدة التضمين كما ذكر العلماء : " إعطاء مجموع معنيين وهو أقوى من إعطاء معنى فذ ، وهو أن تؤدي كلمة مُؤدى كلمتين "[17]. فالإتيان بالمفردة بدلاً عن أخرى وتضمن المعنيين يعطي . فيما أرى . دلالة أقوى على المعنى ما كانت لتؤديها المفردة الأولى ، و إلاَّ لماذا إذن أبدل الفعل بفعل أخر؟! . هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار مسألة تعدي الفعل بالحرف وعدمه ، ولعل الغريب في الأمر أن الباحث الفاضل مع إطلاقه هذا الأمر قد صرح بأن ثمَّة دلالة ممتزجة من الفعلين ترسخ في الذهن إذ يبقى في ذهن المتلقي شيء من دلالة الفعل المذكور. قال:" إذ يبقى في ذهن المتلقي شيء من دلالة الفعل المذكور لفظاً . وهي التي وصفها الكفوي بأنها غير مراده . ممتزجة في الذهن بدلالة الفعل المضمن معناه في المذكور"[18].

ثم ألم يشترط الباحثون . وهو منهم كما سيأتي . وجود المناسبة بين الفعلين وتقارب معانيهما، ووجود القرينة ومن ملامح حدَّه المذكور آنفًا العمل الإعرابي الذي يحمله النائب من المنوب عنه (مقتضيات التركيب) . وحدوثه مرتبط لحمل النائب دلالة المنوب عنه ، وهذا الأمر يؤكد أن ثمة دلالة في الفعل الأول ينبغي أن يحملها الفعل النائب . ومنه أيضًا اشتراط ما ذهب إليه المجمع اللغوي القاهري من تقارب المعاني ووجود القرينة.

وأود الإشارة . هاهنا . إلى أمر على جانب من الأهمية وهو رأي ابن جني في هذه المسألة (اعني اقتصار التضمين على الأفعال) فقد ذكر الباحثان الفاضلان الدكتور عبد الله صالح بابعير [19] والدكتورة ندى سامي[20] أنَّ ابن جني أراد بقوله : " اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر ، فإن العرب قد تتسع ، فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه ، إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر " [21]. أمَّا اقتصار التَّضمين على الأفعال فهو أمرٌ فيه نظر:

فالذي يظهر من نصِّ ابن جني أنَّه لم يقتصر التضمين على الأفعال حسب وإنما يتعداه إلى الحروف بقوله: (فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه) هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ ابن جني ذكر هذا الكلام تحت باب عنوانه: (باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض)، قال : " .... وذلك أنهم يقولون : إنَّ (إلى) تكون بمعنى (مع) ويحتجون بقول الله سبحانه : قال من أنصاري إلى الله[آل عمران: 52] أي : مع الله ، ويقولون : إن (في) تكون بمعنى (على)، ويحتجون بقوله عز اسمه ولأصلّبنكم في جذوع النخل [طه: 71]، أي : عليها ...، ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنا نقول : أنه يكون في معناه في موضع دون موضع على حسب الأصول الداعية إليه ، والمسوغة له ، فأمَّا في كل موضع وعلى كل حال فلا " [22].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكلام ابن جني . ههنا . ينفي ما قيل في اقتصاره التضمين على الفعل دون الحرف ألا ترى إلى قوله : " إنَّ (في) تكون بمعنى (على) ... ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا ". فهو لا يعترض على جواز تضمين الحرف معنى حرف آخر، لكنه يقصر على تقارب المعاني ووجود المسوغ .

وبناءً على ما تقدم يمكن أن نستنتج من كلام ابن جني أمرين:

أولهما: أنه قصر التضمين في الفعل والحرف، وهو رأي انفرد به عن غيره من النَّحويين.

أمَّا الآخر: فإنه يكشف رأي عالم بصري في مسألة جواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض المسألة التي انتابها الاضطراب في نسبة الآراء إلى البصريين والكوفيين. وسأفصل القول في هذا لاحقًا .

ومن صور التَّضمين في الأفعال :

1) **تضمين اللازم معنى المتعدي** : من ذلك قولك: (رحُبَتكَ الدَّارُ)، فالفعل (رَحُبَ) لازم ، لكنه عُدي إلى المفعول به (الكاف)؛ لتضمنه معنى (وسعتكم) [23].

2) **تضمين المتعدي معنى اللازم** : ومن ذلك قول ذي الرمة[24] :

فإنْ تعتذر بالمحْل من ذي ضُروعها ... إلى الضَّيْف يَجْرِحْ من عراقيبها نَصْلِي

فقد حمل النَّحويون (يَجْرَحْ) على تضمينه معنى (بَعثَ أو يُفسد) [25] ومن ذلك قوله تعالى: ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا [الكهف: 28]. إذ حمل (لا تعد) المتعدي في الأصل على تضمينه معنى (لا تتصرف) اللازم ، فعُدِّي بـ (عن) [26].

3) **التضمين بين الأفعال المتعدية** : أي أن يضمن المتعدى إلى مفعول معنى آخر مثله في التعدي ، كقوله تعالى: فأماته الله مائة عام ثم بعثه [البقرة: 259]، إذ يتضمن (أماته) معنى (ألبثَه)[27].

ويشمل التضمين في الفعل دلالته الزمنية أيضًا وقد عرض الزركشي لهذا الأمر وذكر أنَّ التَّضمين قد يأتي : (للتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه) [28].

وهو أمر قد قال به من قبل نحويون ومنهم المبرد فقد ذكر في (باب الجزاء) أنه (قد يجوز أن تقع الأفعال الماضية في الجزاء على معنى المستقبل) [29].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النَّحل: 1]، إذ حمل (أتى) على (يأتي) [30]، والله أعلم .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيًا : قصر آخرون التَّضمين على الأسماء، والأفعال ومنهم ابن القيم الجوزيه (رحمه الله) إذ عدَّ التضمين " أن تضمن أسمًا معنى اسم لإفادة معنى الأسمين فتعديه تعديته في المواطن ، وهو أربعة أقسام :

الأول : قوله تعالى: حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق [الأعراف: 105]، ضمن (حقيقٌ) معنى (حريص) ليفيد أنَّه محقوق بقول الحق وحريص عليه .

والثاني : أن تضمن فعلاً معنى فعل لإفادة معنى الفعلين .

والثالث : قوله تعالى : ان كادت لتبدي به [القصص:10]، ضمَّن (لتبدي) معنى (لتخبر به) ، أو (لتعلم) ليفيد الإظهار معنى الاخبار ؛ لأنَّ الخبر قد يقع سرًا غير ظاهر.

الرَّابع : قوله تعالى: عينا يشرب بها عباد الله [الإنسان: 6] [31] ضمَّن (يشرب) معنى (يروي) أو معنى (يلتذ)؛ ليفيد الشرب والري أو الشرب والالتذاذ جميعًا " [32] ، وقد ذهب إلى هذا بعض الباحثين المعاصرين[33] .

ويلاحظ في نصِّ ابن القيم أنَّ الاسم فيه جاء وصفًا مشتقًّا ، وقد يأتي المصدر أيضًا متضمنًا معنى مصدر آخر، نحو قوله تعالى: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم [البقرة: 187]، فقد ضمَّن الرفث معنى الإفضاء، أي: ناب عنه باحتلال موقعه في سياق التركيب، فحمل معناه مقتضيات تركيبه، فعدَّى بـ (إلى) وهو معدى في الأصل بالباء أو مع[34] .

ولا يخفى أن الوصف المشتق والمصدر يحملان دلالة على الحدث، ومن ههنا أجاز الباحث عبد الله بابعير التضمين في الاسم المشتق والمصدر ؛ لأنهما يحملان معنى الفعل وهو الحدث[35].

ثالثًا: التَّضمين في حروف الجر : شغلت مسألة نيابة حروف الجر بعضها مناب بعض حيزًا كبيرًا في كتب اللغويين والنَّحويين حتى تبادر إلى أذهان بعض الباحثين أن موضوع التضمين إنما يخص حروف الجر حسب . ولا يقدح هذا في أمر التَّضمين شيئًا بقدر ما يقدحه طريقة تناول هذا الموضوع إذ بنيت دعائمه على (فرضية) شاعت في الدَّرس النَّحوي مفادها (الخلاف بين البصريين والكوفيين في مسألة تناولت حروف الجر)، فلا يكاد مؤلف بحث التضمين في مؤلفه من الابتداء بطرح هذه الفرضية مقدمة لموضوعه .

ولعل هذا الأمر من أكثر الأمور التي عقدت من جزئيات هذا الموضوع ؛ لأنَّها أدَّت إلى القول بتفسيرات على لسان المنسوب إليهم المنع أو الجواز فيها ، أو لم يقولوا بها مما أدى إلى تعدد هذه التفسيرات، والتي تؤدي كثرتها والمبالغة فيها بلا شك إلى فقدان الغاية المرجوَّة من الموضوع،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والانشغال بها عن مسائل أخرى ، ولو كانت قد دُرست لأدَّت في تقديري إلى نتائج أفضل كالاهتمام بتقعيد قواعد للتضمين بعد استقراء النصوص، ومحاولة جمع هذه النصوص التي اشتلمت على التضمين، أو صنع معجم تاريخي يجمع هذه الألفاظ المتضمنة معنى ألفاظ أخرى للحفاظ عليها، ومن ثمَّ فهي بلا شك تثري اللغة وتوسِّع استعمالاتها .

وعلى أية حال فالقول في اختلاف البصريين والكوفيين في مسألة إنابة حروف الجر بعضها عن بعض قد قال بها النَّحويون المتأخرون، وتبعهم في هذا طائفة كبيرة من الباحثين المعاصرين. قال ابن هشام : " مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس كما أنَّ أحرف الجزم والنصب ... والكوفيين والمتأخرين بعضهم لا يجعلون ذلك شاذًّا ومذهبهم أقل تعسفًا " [36]. وقد ذهب إلى هذا بعض النَّحويين المتأخرين[37]، وتابعهم طائفة من الباحثين المعاصرين منهم أحمد الأسكندري [38]، ود. مهدي المخزومي [39]، ود. إبراهيم السامرائي [40] ، ود. أحمد عبد الستار الجواري [41]. رحمهم الله .

والدكتور عبد الإله إبراهيم[42]. والدكتور عبد الرسول سلمان [43]، ود. محيي الدِّين عبد الرحمن رمضان[44]، ود. عبد الله بابعير [45]، والدكتورة ندى سامي[46]، ود. فاضل السامرائي[47].

والذي يبدو أن ما عُزي إلى البصريين أمر يفتقر إلى الدِّقة، وليس رأيهم الصورة التي نُقلت عنهم، وبيان ذلك فيما يأتي :

إنَّ القارئ لأقوال سيبويه في الكتاب يلمح إشارته إلى اختصاص بعض الحروف بمعان أصلية فيها، وأنها قد تخرج اتساعًا في الكلام إلى تأدية معانٍ أخر، قال سيبويه: : وباء الجر إنَّما هي للإلزاق والاختلاط ، وذلك كقولك : خرجتُ بزيدٍ ، ودخلتُ بهِ ، وضربتُه بالسوط : ألزمت ضربَك إيَّاهُ بالسَّوط . فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله "[48].

وقال : " وأمَّا (في) فهي للوعاء ، تقول: هو في الجراب، وفي الكيس، وهو في بطن أمه، وكذلك: هو في الغل ؛ لأنَّه جعله إذا أدخله فيه كالوعاء له ، وكذلك : هو في القبة ، وفي الدَّار ، وإن اتسعت في الكلام فهي على هذا، إنما تكون كالمثل يُجاءُ به يقارب الشيء وليست مثله "[49].

ويلاحظ في قول سيبويه : " وإن اتسعت في الكلام فهي على هذا ، وإنما تكون كالمثل يُجاءُ به يقارب الشيء وليس مثله ". إنه يشير إلى مسألة اتساع الحرف بخروجه لتأدية معانٍ أخرى [50].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبهذا قال الأخفش الأوسط أيضًا لكنَّه صرَّح بتناول حروف الجر في مواضع بعينها .. منها : " وقال: فوسوس لهما الشيطن [الأعراف: 20]، والمعنى: فوسوس إليهما الشيطان، ولكنَّ العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل .... "[51].

وقال : " وكذلك قال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع [إبراهيم: 37]. يقول : أسكنت من ذريتي أناسًا ، ودخلت الباء على واد كما تقول : هو بالبصرة ، وهو في البصرة"[52].

وبهذا قال المبرد أيضًا في كتابه الكامل: " وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع.قال الله جل ذكره: ولأصلبنَّكم في جذوع النخل [طه: 71]، أي: على ... " [53] . وإلى ذلك ذهب أبو بكر بن السراج أيضًا إذ قال:" وأعلم : أن العرب تتسع فيها "يريد في حروف الجر" فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني .. فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز"[54] . وقد تقدَّم رأي ابن جنِّي في هذه المسألة فيما سبق [55].

هذه –إذن– حقيقة رأي البصريين في هذه المسألة، وخلاصة الأمر: أنَّهم قالوا بالتناوب في حروف الجر إذا تقاربت المعاني ودعت مقتضيات السِّياق، ولم يحملوا الأمر في المواضع التي جازت فيها الإنابة على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى كما نسب لهم [56]، والله أعلم.

ذكرت سابقًا أنَّ التفسيرات التي وجهت بها أمثلة التضمين أغلبها بناء على ما قيل من اختلاف المذهبين البصري والكوفي في هذه المسألة ، وهي توجيهات كثيرة لا يسع البحث لذكرها جميعًا، ولذلك سأقتصر على أشهر تلك التوجيهات :

1/ تأويل المثال تأويلاً يقبله اللَّفظ، كاستعارة الحرف الذي تعدى به الفعل المذكور لمعنى الحرف الذي ينبغي أن يتعدى به[57]، نحو قوله تعالى: فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله[آل عمران: 52]، فلمَّا كان المعنى: من ينضاف في نصرتي إلى الله ؟، جاز أن يؤتى بـ (إلى) أو حمل التَّعدية أو اللزوم في الفعل على سبيل نيابة بعض الحروف عن بعض شذوذًا لا عن طريق القياس[58]. وهذا الأمر .كما أوضحت سابقًا . قد قال به المتأخرون ونسبوه إلى النَّحويين البصريين.

2/ وقوعه مقتصرًا على موضع دون آخر ، وبحسب أحوال دعت إليه وسوغته وبالتحديد (تقارب المعاني) وهو ما ذكره ابن جني ومن قبله النَّحويون البصريون كما ذكرت آنفًا .

3/ إن للحرف معنى أصليًّا ، ومعاني أُخرى ترجع إلى المعنى الأصلي ، فاللاَّم تفيد الاختصاص وهو معنى لها وتفيد معنى التعليل[59]، وهذا التأويل ينسجم مع فائدة التضمين ، فالحرف بهذا يعطي أو يفيد معنيين، وهو أقوى من إعطاء معنى واحد .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4/ التناوب حملاً على الضِّد ، وهذا ما ذكره ابن جني من مذهب الكسائي في وقوع الحرف موضع غيره نحو قول الشَّاعر[60] :

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيرٍ لَعَمرُ اللهِ أَعجَبَنِي رِضَاهَا

(فعليَّ) في موضع (عني) ؛ لأن الرضى عن الشيء حُبّه ، والإقبال عليه ، فقد حمل (رضي) على (سخط) ، كما يحمل على نظيره ، وقد استمعن أبو علي الفارسي هذا المذهب وذكر ابن جني أن هذا من مذهب سيبويه في المصادر من حمل أحدهما على ضده [61] .

5/ التناوب لغة قوم ، وأمثلة على ذلك فيما روي عن أبي زيد الأنصاري والأخفش، والفراء ، في نحو قول الشاعر [62]:

لعلَّ أبي المِغْوارِ مِنْكَ قَرِيبُ

فذلك لغة عقيلية ، وأنكرها قوم وتأولوا البيت [63]، يقول الدكتور أحمد عبد الستار الجواري (رحمه الله) : " إن المادة اللغوية قد جمعت من لهجات قبائل عديدة في رقعة من الأرض واسعة ليست بالمحدودة ولا الضيقة ، ولا غرابة أن تتعدد استعمالات الألفاظ وتختلف بين القبائل في البقاع المختلفة ، ولهذا يرد تعدد المعاني في اللفظ الواحد ويكون احتمال ذلك مقبولاً في العقل والمنطق " [64].

5/ اللفظ على معناه حقيقة أو مجازًا ، وقد اختلف الأقدمون في هذه المسألة فهناك من قال بالمجاز في أحد المعنيين واختلفوا في نوعه، وذهب آخرون إلى أن الدلالتين حقيقيتان، وحاول فريق ثالث أن يوفق بين الرأيين فقال بوجود الحقيقة والمجاز معًا في اللفظ المحمول على التضمين[65].

6/ التناوب من الترادف ، وهو ما حاول البعض تفسير ظاهرة التضمين به وذكروا أنه شاهد على ما ينكر وقوع لفظين في اللغة بمعنى واحد [66]، وجعلوا منه قوله تعالى: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم [البقرة: 187]، (الرفث) بمعنى (الإفضاء) . (هل لك إلى) في قوله عز وجل: فقل هل لك إلى ان تزَّكَّى [النازعات: 18] بمعنى : أدعوك إلى .

وهذا الأمر فيه نظر؛ لأنَّ الترادف في ألفاظ القرآن الكريم ما لا يرتضيه كثير من الباحثين، وهو أمر صائبٌ فيما يبدو؛ لأنَّنا لو تأملنا الخطاب القرآني لوجدنا أن كل حرف فيه أو كل لفظة مقصودة في ذاتها التي هي عليها فلا تغني عنها كلمة أخرى ؛ لأنَّ المعنى اقتضى أن يكون هذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحرف أو اللفظ في موضعه من الكلام لأداء الغرض المطلوب والمقصود، هذا فضلاً عن أنَّ المعاني لو كانت متماثلة بين اللفظين أو الحرفين لصحَّ إبدال حرف بآخر أو لفظة بأخرى .

ولعالمنا الجليل الدكتور فاضل السامرائي مباحث طويلة في مسألة اختلاف المعاني لاختلاف التراكيب ، ومن كلامه في هذا المقام:" أن التعليل يؤدى باللام وقد يؤدى بالباء وبمن وبفي ولكنه يذكر بأن معنى التعليل في هذه الأحرف غير متماثل، فلكل منها معنى خاصاً ، وإن كانت كلها تفيد التعليل، فلا يصح مثلاً في قوله تعالى : وإذ استسقى موسى لقومه [البقرة: 60]، أن تقول : (وإذ استسقى موسى بقومه أو في قومه) لأداء المعنى نفسه" [67].

ولهذا فإن القول بالتضمين في القرآن الكريم أمر ينبغي النَّظر فيه . فيما أحسب . لدقة تعبيرات هذا الكتاب المعجز في كل حرف ، وكل لفظ ، وكل آية . وأغلب تفسيرات أمثلة التضمين لا يمكن أن تخضع النص القرآني إليها ، والله أعلم .

أمَّا في الكلام فلا مانع من القول بالتَّضمين ما دام يعطي قوة في المعنى بالجمع بين المعنيين وبلاغة بالتعبير عنهما بأرفع أسلوب ، وما دامت الألفاظ لدينا في الغالب تُغني عنها مثيلاتها ، ولاشك في أن هذا سيُثري اللغة ويوسع استعمالاتها ، والله أعلم بالصواب وهو الهادي إلى سواء السبيل .

الخلاصة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، تعدُّ هذه الدِّراسة محاولةً لإلقاء الضوء على ظاهرة التضمين النحوي، وقد انتهيت إلى تسجيل أهم النتائج نجملها بالآتي:

1- التضمين من أنزه الفصول في العربية، فإذا تأملته عرفتَ منه وبه ما لحروف المعاني من أسرار يكشفها لك ..

2- لم أقف في حدود ما اطلعت عليه من مظان على دراسةٍ وافيةٍ للتضمين في المنهج على وجه الخصوص، ، إذ كانت الدراسات منصبَّة على تناول (فرضية) الخلاف بين البصريين والكوفيين .

3- كان الملمح البارز في تعريفات العلماء للتضمين عدم اقتصاره على لفظة دون أخرى، وإنما اشتمل مفهومهم له اللفظ مطلقًا .

4- عدَّ بعض النَّحويين والباحثين التَّضمين مقتصرًا على الأفعال ومن هؤلاء الزمخشري ، والسيد الجرجاني ، والشهاب الخفاجي ..

5- إن إخراج الحروف والأسماء المبنية من دائرة التضمين واقتصاره على الأفعال ، وعدَّ التَّضمين صورة من صور النيابة ، لا يمكن إطلاقه ؛ لأنَّ الفعل إن تخلَّى عن دلالته المعجمية ليحمل معنى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفعل المسقط سينفي دلالته هو، والذي تميَّز به عن غيره، ومن ثم اقتضى الإتيان به . ههنا . ليفيد دلالة أقوى على معنى الكلمتين .

6- قصر آخرون التَّضمين على الأسماء، والأفعال ومنهم ابن القيم الجوزيه (رحمه الله)..

7- شغلت مسألة نيابة حروف الجر بعضها مناب بعض حيزًا كبيرًا في كتب اللغويين والنَّحويين حتى تبادر إلى أذهان بعض الباحثين أن موضوع التضمين إنما يخص حروف الجر حسب .

8- لا يقدح في أمر التَّضمين شيئًا بقدر ما يقدحه طريقة تناوله، إذ بنيت دعائمه على (فرضية) شاعت في الدَّرس النَّحوي مفادها (الخلاف بين البصريين والكوفيين في مسألة تناولت حروف الجر)، فلا يكاد مؤلف بحث التضمين في مؤلفه من الابتداء بطرح هذه الفرضية مقدمة لموضوعه.

9- حاول البعض تفسير ظاهرة التضمين على أن التناوب من الترادف ، وهذا الأمر فيه نظر؛ لأنَّ الترادف في ألفاظ القرآن الكريم ما لا يرتضيه كثيرٌ من الباحثين، وهو أمر صائبٌ فيما يبدو؛ لأنَّنا لو تأملنا الخطاب القرآني لوجدنا أنَّ كلَّ حرف فيه أو كلَّ لفظة مقصودة في ذاتها التي هي عليها فلا تغني عنها كلمة أخرى ..

10- القول بالتضمين في القرآن الكريم أمر ينبغي النَّظر فيما أحسب لدقة تعبيرات هذا الكتاب المعجز في كل حرف ، وكل لفظ ، وكل آية . أمَّا في الكلام فلا مانع من القول به ما دام يعطي قوة في المعنى بالجمع بين المعنيين وبلاغة بالتعبير عنهما بأرفع أسلوب.

هوامش البحث:

([1]) مجمل اللغة ،أحمد بن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1404هـ - 1984م: (ضمن) (566/2).

([2]) أساس البلاغة، للزمخشري ، دار ومطابع الشعب ، القاهرة : 1960: (ضمن) (568) .

([3]) لسان العرب، ابن منظور ، بيروت ، دار صادر ، 1968م : (ضمن) (126/17).

([4]) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي تح : محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : 1376هـ - 1957م (338/3).

([5]) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الأنصاري ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ،مطبعة المدني ، القاهرة: (685/2).

([6]) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمَّى (منهج السالك إلى ألفبه ابن مالك) ومعه كتاب أوضح المسالك لتحقيق منهج السالك لمحمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة العربية . ط3 ، د.ت: (244/2).

([7]) حاشية الصبان على شرح الأشموني ، محمد بن علي الصبان ، القاهرة : 1366هـ - 1947م: (95/2).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

([8]) أوضح المسالك لتحقيق منهج السالك في حاشية شرح الأشموني لمحمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة العربية . ط3 ، د.ت . (2004/2) ، وينظر: التضمين في أفعال القرآن الكريم 7 .

([9]) فقه اللغة المقارن ، إبراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين ببيروت، ط4، 1987م :(218) .

([10]) وقد سبق مجمع اللغة العربي في القاهرة الدكتور إبراهيم السامرائي في هذا، إذ اشترطوا ثلاثة شروط لقياسية التضمين في الأفعال حسب، وهي : تحقق المناسبة بين الفعلين ، ووجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ومؤمن معها اللبس ، وملاءمة التضمين الذوق العربي .

([11]) الأشباه والنظائر للسيوطي : تح : طه عبد الرؤوف السعد ، مكتبة الكليات الأزهرية : 1395هـ – 1975 م: (133/1) ، وينظر: التضمين في أفعال القرآن الكريم دراسة صرفية نحوية دلالية ، ندى سامي ناصر ، (أطروحة دكتوراه) /كلية التربية / الجامعة المستنصرية 2001م.:(5).

([12]) حاشية الجرجاني : 97/1، نقلاً عن: معاني النحو : 13-12/3 .

([13]) حاشية الشهاب : 211/1 ، نقلا عن ظاهرة النيابة في العربية (أطروحة دكتوراه): 260 .

([14]) مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة (قرار التضمين) : جـ1 ، 1934م ، ص180-181 .

([15]) ظاهرة النيابة في العربية (أطروحة دكتوراه) عبد الله صالح بابعير ،كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية 1997م : 271.

([16]) الكليات 320/5 .

([17]) ظاهرة النيابة في العربية : 267 ، واتساع الدلالة في الخطاب القرآني ، محمد نور الدين المنجد ، دار الفكر ، دمشق ، 2013م: 370.

([18]) ظاهرة النيابة في العربية : 267 .

([19]) المصدر نفسه : 259 .

([20]) التضمين في أفعال القرآن الكريم : 6 .

([21]) الخصائص لأبي الفتح ابن جني: تح : حمد علي النجار، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد 1990م :(310/2).

([22]) الخصائص : 308/2 – 310 .

([23]) مغني اللبيب : 525/2 ، وينظر ظاهرة النيابة في العربية : 273.

([24]) البيت من الطويل ، ديوان ذي الرمة بشرح أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي رواية ثعلب تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مطبعة طربين ، دمشق (1392 هـ) ، وبتحقيق كارليل هنري كمبردج (1919 م) : 490.

([25]) مغني اللبيب : 521/2، وينظر معاني النحو : 15-14/3 .

([26]) الأمالي الشجرية : 148-147/1 ، نقلاً عن ظاهرة النيابة في العربية : 274 .

([27]) مغني اللبيب : 530/2 وينظر ظاهرة النيابة في العربية : 274 – 275 .

([28]) البرهان 3/ 372 – 377 ، وينظر : التضمين في أفعال القرآن الكريم : 11

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

([29]) المقتضب للمبرد ، تح : محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، 1385هـ . 1988م. :(ص 50/2)، وينظر التضمين في أفعال القرآن الكريم : 11 .

([30]) التضمين في أفعال القرآن الكريم : 15.

([31]) الأنعام : 6.

([32]) الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان): 17، نقلاً عن التضمين في حروف الجر في القرآن الكريم:7-8.

([33]) وهي الدكتورة ندى سامي . ينظر : التضمين في معاني القرآن الكريم : 8 .

([34]) ينظر الخصائص : 310/2 ، ومغني اللبيب : 685/2 .

([35]) ظاهرة النيابة في العربية : 270-271.

([36]) مغني اللبيب : 11/1 .

([37]) ينظر: الجنى الداني في الحروف والمعاني، للمرادي ، تح : طه محسن ، جامعة الموصل: 1396هـ . 1976م، (ص108. 109) ، وحاشية الصبان : (210/2) .

([38]) حقيقة التضمين ووظيفة حروف الجر : مجلة المجمع العلمي العراقي : م / 32 ، 1981م ، ص56 .

([39]) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، د. مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، لبنان ، ط3 ، 1986م : (283 – 284). حقيقة التضمين ووظيفة حروف الجر . مجلة المجمع العلمي العراقي : م / 32 ، 1981م ، ص 56 .

([40]) فقه اللغة المقارن : 213 .

([41]) التضمين في حروف الجر في القرآن الكريم ،د. أحمد عبد الستار الجواري ، مجلة المجمع العلمي العراقي / مج، 32 / 1401هـ - 1981م: (ص9 ،و 10 ،و 11) .

([42]) شبه الجملة في اللغة العربية، عبد الإله إبراهيم عبد الله (رسالة ماجستير) كلية الآداب ، جامعة بغداد: 1983م: (98).

([43]) الدراسات النحوية والصرفية واللغوية في صحاح الجوهري ، عبد الرسول سلمان إبراهيم ، رسالة ماجستير / كلية الآداب / جامعة بغداد ، 1986م .:(ص 231).

([44]) تفسير أوجه استعمال حروف الجر ، مجلة المجمع العلمي العراقي : ج /43 م/40 : 1989 / ص 255-285 . 259-

([45]) ظاهرة النيابة في العربية : 261 .

([46]) التضمين في أفعال القرآن الكريم : 8 – 9 .

([47]) معاني النحو:6/3.

([48]) الكتاب ، سيبويه ، تح عبد السلام محمد هارون ، دار القلم : 1385هـ - 1966م : (4/ 217).

([49]) الكتاب : 4 / 266 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

([50]) ينظر: شبه الجملة في اللغة العربية : 100 ، ووظيفة حروف الجر : 156 ، والبحث النحوي في تهذيب اللغة للأزهري ، محمد عبد الرسول سلمان ، رسالة ماجستير / كلية التربية / الجامعة المستنصرية : 1997م: (233).

([51]) معاني القرآن : 296/2 .

([52]) المصدر نفسه : 2 / 207 .

([53]) الكامل، للمبرد ، عارضه بأصوله ، وعلق عليه ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة . د.ت:(97/3)، وينظر : المقتضب : 319/2 – 320 .

([54]) الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج ، تح : د. عبد الحسين الفتلي ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت : 1407هـ - 1987م :(414/1-415).

([55]) ينظر : ص من البحث .

([56]) ينظر : البحث النحوي في تهذيب اللغة للأزهري : 235 .

([57]) تفسير أوجه استعمال حروف الجر : 256 ، وظاهرة النيابة في العربية : 261 .

([58]) ظاهرة النيابة في العربية : 261 .

([59]) تفسير أوجه استعمال الحرف الجر : 257-258 ، وأود الإشارة إلى أن معاني حرف اللام قد أوصله ابن هشام إلى اثنين وعشرين معنى ، ينظر مغني اللبيب : 208/1 .

([60]) البيت من الوافر ، لقحيف العامري، يمدح حكيم بن المسيب القشيري، لسان العرب (رضي) 323/14.

([61]) الخصائص : 313/2 ، وينظر تفسير أوجه استعمال حروف الجر : 259- 260 .

([62]) هذا عجز بيتٍ من الطّويل، وصدره: (فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتَ جَهْرَةً ....)، وهو لكعب بن سعد الغنويّ، ويُنسب لسهم الغنويّ. الجنى الداني 370 .

([63]) ينظر : تفسير أوجه استعمال حروف الجر : 260 .

([64]) حقيقة التضمين ووظيفة حروف الجر : 164 .

([65]) ينظر فقه اللغة المقارن : 218 ، وظاهرة النيابة في العربية : 262 ، وقد استوفى الشيخ ياسين في حاشيته على التصريح أقوال النُّحاة والبلاغيين في هذه المسألة ، ولخصها الشيخ أحمد الاسكندري وأضاف لها أقوالاً أخرى، لا يتسع المجال لذكرها ههنا، وينظر : حاشية ياسين : 704/2 ، والتضمين : 187 – 188 – 189.

([66]) ينظر : تفسير أوجه استعمال حروف الجر : 260 .

([67]) المعاني المشتركة بين حروف الجر، د. فاضل صالح السامرائي ، مجلة المجمع العراقي، ج4، مج 39، 1409هـ. 1988م. (240 –241).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com